

**دراسة مقارنة لنظرية جان بياجيه في النمو العقلي
(المعرفي - الاخلاقي) لدى الانسان ودلالته في القرآن
الكريم**

أ.م. د. مريم هاشم حمد البدري

كلية الامام الكاظم (ع) / فرع واسط

Mariamhashim444@gmail.com

Abstract

The current research dealt with this kind of comparative studies between the Holy Qur'an and the psychology of cognitive development. In this research, we highlight a special aspect of the growth of the individual, which is the mental and cognitive development of the human being. The theory of the scientist Jean Piaget 1896-1980, and since the theory of cognitive growth possesses its temptations. The dazzling thing made it gain popularity and support from great schools of personality theory in the West and East, and in particular by the interpreters of the child's theory of the Islamic approach. Western philosophy was not liberated from the sterile debate between rationalists and empiricists in the nature of knowledge in children until after the study of Piaget and the prevailing theory is close to the theory of Islam (the Qur'an). The Holy One), where you see that knowledge is the result of an organic intermarriage in the human being as a scientist and a knower of nature and a subject of knowledge at the same time. This new theory has changed the course of modern education. And what the Holy Qur'an brought, which preceded the scientist Jean Piaget by more than eleven centuries of time.

Keywords: Comparative study. Piaget's theory. Mental development. Cognitive development. Moral development.

الملخص

تناول البحث الحالي هذا النوع من الدراسات المقارنة بين القرآن الكريم وبين علم نفس النمو المعرفي، وفي هذا البحث نسلط الضوء على جانب خاص في النمو عند الفرد وهو النمو العقلي المعرفي لدى الانسان، وقد تناولنا نظرية العالم جان بياجيه (Jean Piaget)، (١٨٩٦ - ١٩٨٠)، وحيث ان نظرية النمو المعرفي تمتلك اغراءاتها المبهرة مما جعلها تجتد اقبالاً وتأييداً من مدارس كبيرة في النظرية الشخصية غرباً وشرقاً وبالخصوص من قبل المفسرين لنظرية الطفل في المقاربة الاسلامية، فلم تتحرر الفلسفة الغربية من الجدل العقيم بين العقلانيين والتجريبيين في طبيعة المعرفة عند الاطفال الا بعد دراسات بياجيه، والنظرية السائدة قريبة من نظرية الاسلام (القران الكريم) حيث ترى بان المعرفة حصيلة تراوج عضوي لدى الانسان بوصفه عالم وعارف للطبيعة وموضوع للمعرفة في آن واحد، وقد تغيرت بهذه النظرة الجديدة مسيرة التربية الحديثة، وما جاء به القرآن الكريم والذي سبق العالم جان بياجيه بأكثر من احد عشر قرناً من الزمن.

الكلمات المفتاحية: دراسة مقارنة، نظرية بياجيه، النمو العقلي، النمو المعرفي، النمو الاخلاقي.

المقدمة

ان هذا البحث يقدم مقارنة بين نظرية المعرفة والقرآن الكريم، فلقد تطور علم نفس النمو وخرج عن مسائل علم الفلسفة لكثرة مطالبه وتفرعاته التي حددت له الاستقلال، لقد كرس بياجيه وتلاميذه كثيراً من الجهد حول موضوع النمو الكيفي للبناء العقلي (Structure intellectual) وموضوع نشوء المفاهيم وطبيعتها وتكوينها بمعنى نشوء التصورات العقلية الأساسية وارتقائها عند الطفل وتطبيقاتها العملية في الحياة التربوية والاجتماعية، وقد اطلق عليها مصطلح وحدات التنظيم العقلية (the units of mental organization)، معتبراً ان في ذهن الطفل استعداداً وراثياً للافصاح (او التعبير عن ذاته) حيث ينمو ويمر في مراحل ارتقائية حتى يستقر على الشكل الذي نمارسه (عثمان، ١٩٨٦: ٢٧-٥٠)، لقد سعى الى تأسيس نظرية في علم الوراثة تستند الى العمل الامبريقي والمختبري حول سيكولوجية الذكاء عند الطفل وتطوره بدلاً من التركيز على التأمل في هذا الموضوع بمعزل عن التجربة، ولهذا عرض الاطفال الى ما يسمى بدراسة الحالة (مقابلة، مناقشة مفصلة) ثم وضعهم في مواقف تجريبية متعددة في المعمل وعلى الطبيعة وسجل ملاحظاته وجمع بيانات، وكان يستهدف الى كيفية اكتساب المفاهيم في وقت محدد من عمر الطفل باستخدام تحليل الاستبطانات الكلامية (عثمان، ١٩٨٦: ٤٠)، وصولاً الى وضع النظرية التي اشتهر بها، وضع بياجيه اختبارات للذكاء استناداً الى نظريته، ووضع نظرية في اصول التربية ايضاً وكان مساهماً في فلسفة التربية تأخذ بعين الاعتبار اهمية التحديد والشمول والتكامل وتحقيق التوازن بين الاجراءات التدريسية وبين امكانيات الطفل واحتياجاته النمائية (عمارة، ١٩٨٥: ١٥٢)، وظل هذا العالم اميناً لتراث المدرسة الاوروبية العريقة في علم النفس والتربية ولهذا واجهته المدارس الامريكية الاقدم (السلوكية - البراجماتية) بقسوة نقدية لا مبرر لها. وقد تطرقنا في البحث الحالي الى الآيات الكريمة والتفاسير الرصينة والمعروفة لدى الباحثين عن مراحل النمو المعرفي لدى الانسان وربطها بنظرية النمو العقلي - المعرفي للعالم الفرنسي جان بياجيه الذي كان عالماً في الرخويات (حيوانات البحر).

الباحث

المبحث الأول

المحور الأول/ تعريف المصطلحات

وقد تناول هذا المبحث التعريف لعلم نفس الانساني وتعريف السلوك الانساني وعلم نفس النمو - وتعريف علم نفس المعرفي والنمو والنضج، والهدف منه كما تناولنا عرض لاهم مراحل النمو المعرفي ونظرية بياجيه في النمو المعرفي واهم المراحل النمائية التي يمر بها الطفل الى ان يصبح راشداً وهذه التعاريف هي كالآتي.

المقصود بعلم النفس الانساني هو العلم الذي يهتم بدراسة السلوك الصادر من الانسان وما وراء هذا السلوك من عمليات عقلية (معرفية) ودوافع وانفعالات دراسة علمية منظمة (نائل وتاج السر، علم نفس النمو: ٢٠٠٥: ٩).

ويعرف السلوك بأنه اي نشاط يصدر من الفرد سواء كان هذا النشاط عقلياً او جسمياً او وجدانياً او اجتماعياً نتيجة لتفاعله مع البيئة المحيطة به ويأتي السلوك نتيجة استجابته لمثير معين.

اما تعريف علم نفس النمو فيعرف بأنه احد فروع علم النفس يهتم بدراسة الانسان منذ ان كان بويضة مخصبة داخل رحم الام، وما تحمله من خصائص وراثية تنحدر من الابوين وبيئة الرحم وما يحدث من تغيرات للجنين اثناء فترة الحمل (فترة ما قبل الميلاد) ثم يتبع الجنين في المهد (Infancy) والطفولة (childhood) والمراهقة (Adolescence) فالرشد والشيخوخة بهدف تفسيرها وضبطها والتنبؤ بها بما يحقق النمو الامثل للفرد (نائل وتاج السر، علم نفس النمو: ٢٠٠٥: ٩).

اما تعريف النمو فتشير اليه (وفاء محمد، ١٩٩٩، بان النمو وكما عرفته مدارس علم النفس حركة دائمة وتغير متصل يسعى لغاية نهائية وهي الاكتمال تتوالى هذه الحركة في التسلسل قدماً الى الامام، وتتابع في سياق تنتقل فيه الشخصية من مرحلة سابقة الى مرحلة لاحقه دون تحطّي لأي من المراحل، وتنتقل العمليات العقلية والوظائف النفسية من عمليات دنيا مباشرة الى عمليات عليا واعية غير مباشرة.

ويعرف محمد عبد القادر واخرون، ١٩٩٧م النمو بأنه سلسلة متواصلة من التغيرات التي تحدث نتيجة للنضج والخبرة وان النمو يتضمن تغيراً كيفياً، وذلك يعني ان النمو لا يتألف بالضرورة من اضافة بعض البوصات الى طول الفرد او تحسين مقدرته، ولكن النمو في الحقيقة هو عملية معقدة لدمج تركيبات ووظائف عدة (نائل وتاج السر، علم نفس النمو: ٢٠٠٥: ١١).

فيما يشير النمو العقلي الى زيادة تفاعل الطفل مع البيئة المحيطة والمثيرات ويبدأ الدماغ يتشكل وتزداد قدراته التحليلية وتتضح معالمه، فعند الولادة يحتوي الدماغ على ملايين الخلايا التي تكون مسؤولة عن الادراك والتفكير والتذكر، ويحدث ذلك في السنتين الاولين من حياة الطفل وعلى الرغم من ان عدد الخلايا يبقى كما هو غير ان وزن الدماغ يزداد بسبب الترابطات التي تحدث بين الخلايا، وكلما تعرض الرضيع الى بيئة مثيرة تطور دماغه (نائل وتاج السر، علم نفس النمو: ٢٠٠٥: ١٢٠).

ويعرف النضج بأنه المفهوم المكمل للنمو، فهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتغيرات البيولوجية وتعتبر التغيرات التي تحدث في التكوين الفيزيولوجي المتضمنة في النضج مقدمات لازمة لكل ما يقوم به الطفل (فعلى سبيل المثال، حركة رفع الطفل حديث الولادة لرأسه والاحتفاظ به معتدلاً حين الجلوس دون مساعدة لا يستطيع، الطفل اداء خلال الاشهر الاولى لان نضجه لم يكتمل بعد وبمفهوم اخر فان عضلات الظهر والرقبة لم يصبهما النضج العصبي، ونضج هذا الجزء من الحركة يتم بفعل تقدم نمو الطفل (مريم سليم، ٢٠٠٢: ١٤).

ويعرف النمو المعرفي، بأنه القدرة التي يولد بها الطفل في الشهر الاول من حياته وتعتبر محكاً أساسياً لمدى قدرته في الوجود، حيث يولد الطفل ولديه بعض الخصائص الذاتية لما يقوم به من استجابات، وما يصل اليه من النمو الجسمي، وكذلك قابليته للتعلم واكتساب الخبرة، وعلى اساس ما يكون لدى الطفل من طاقات وقدرات واستعدادات، يتوقف شكل التفاعل بينه وبين بيئته المادية والاجتماعية، مما يحدد المسار الذي تتجه فيه عملية النمو (مريم سليم، ٢٠٠٢: ١٧٠).

فالإنسان يتغير بصفة مستمرة، ومن خلال عملية النمو يصبح الافراد متباينين في صفاتهم وسماتهم واستجاباتهم واتجاهاتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولذلك ظهر علم نفس النمو ليدرس ويصف التغيرات السلوكية التي تصاحب التغيرات في مراحل العمر المختلفة.

وعلم نفس النمو ليس بالشيء الجديد انما عرفه الانسان منذ القدم، وهو يمتد بجذوره الى ظهور الاسلام وبداية الدعوة المحمدية الشريفة، ففي القرآن الكريم ابلغ دلالة على مفهوم التكوين الجسمي والنفسي وهو ما يطلق عليه علم النفس الحديث بعلم النفس التكويني او سيكولوجية الطفولة، والآيات الاتية تمثل اصل التكوين البيولوجي وطبيعة النمو الوظيفي للإنسان، وهو ما يتحدث عنه علم نفس النمو بنظرياته الحديثة.

فقد جاء في سورة المؤمنون الآيات ١٢، ١٣، ١٤)، ((ولقد خلقنا الانسان من سلسلة من طين * ثم جعلناه نطفه في قرار مكين * ثم خلقنا النطفه علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً اخر فتبارك الله احسن الخالقين))، (سورة المؤمنون، الآيات ١٢، ١٣، ١٤).

وقوله تعالى في (سورة الروم - الآية ٥٤)، ((الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعفٍ قوة ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشبيهه يخلق ما يشاء وهو العليم القدير)) (سورة الروم، الآية، ٥٤).

وكذلك قوله تعالى ((هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا اشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا اجلاً مسمى ولعلكم تعقلون))، (سورة غافر، الآية ٦٧).

وقوله جل وعلا ((الله الذي خلقكم من ضعفٍ ثم جعل من بعد ضعفٍ قوة ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشبيهه يخلق ما يشاء وهو العليم القدير))، (سورة الروم الآية ٥٤).

وهذه الآيات وما اتصفت به من ايجاز فأتمها تدل على مراحل النمو، وجاء في السنة النبوية ما يؤكد حقيقة ما ورد في القرآن الكريم من مراحل النمو، وقد روي عن عبدالله بن مسعود يقول حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم " ان احدكم يجمع خلقه في

بطن امه اربعين يوماً نظفه، ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بكتب اربع كلمات، يكتب رزقه، واجله، وعمله، وشقي او سعيد" (رواه البخاري).

ويحدد الحديث النبوي مراحل ما بعد الولادة فقد ورد في الحديث الصحيح عن انس رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال " الغلام يعق عنه (اي يذبح عن العقيقة) يوم السابع ويسمى ويمط عنه الاذى، فاذا بلغ ثلاث عشرة ضرب على الصلاة، فاذا بلغ ستة عشر سنه زوجه ابوه ثم اخذ بيده وقال: قد ادبتك وعلمتك وانكحتك، اعوذ بالله من فتنك في الدنيا وعذابك في الآخرة ويذكر الامام الغزالي في كتابه "احياء علوم الدين" ان هذا الحديث اخرجه ابو الشيخ بن حيان في كتابه (الضحايا والعقيقة) الا انه قال وادبوه لسبع وزوجه لسبع عشرة، وفي نفس الصدد يشير فؤاد ابو حطب وامال صادق (١٩٩٠) الى ان هذا الحديث يميز تمييزاً واضحاً بين المراحل الآتية (عادل عز الدين، ١٩٨٩: ص ١٢).

١. مرحلة الوليد وهي الاسبوع الاول من حياته.
٢. مرحلة ما قبل التمييز ما قبل سن المدرسة.
٣. مرحلة البلوغ الجنسي وعندها يبدأ التكليف بالعبادات.
٤. مرحلة الرشد ومؤشرها الزواج.

والمأمل في كتابات علماء المسلمين يجدها مليئة بالأفكار الكثيرة، مثل اراء الامام الغزالي وابن الطفيل وابن سينا وابن لدون والكندي والفارابي وابن مسكويه حيث انها لا تخرج في جوهرها عما اتت به نظريات النمو الحديثة، فقد اشاروا الى اهمية الطفولة المبكرة وذكروا ان الطفل في هذه المرحلة لديه طاقات كبيرة من الحماس والخيال والنشاط يمكن استغلالها لتنمية شخصيته واصبح اشباع حاجات الطفل واهتماماته البيولوجية والاجتماعية تمثل جانباً هاماً من جوانب دعم الطفولة ورعايتها في علم النفس الحديث.

المحور الثاني/ نظرية جان بياجيه (١٨٩٨-١٩٨٠)م

لقد وضع جان بياجيه منهجاً في البحث العلمي يعتمد على دراسة تكوين المعارف الصحيحة لدى الطفل (معرفة الواقع)، دراسة الانتقال من حالات المعرفة الدنيا الى حالات المعرفة الاكثر تقدماً (الطيري، بلا تاريخ: ٣٢٠)، أنطلق من مبدأ اهتمامه بالأطفال عندما بدأ اختباراته حول نمو الملكات العقلية في بداية حياته العملية، وقد لاحظ ان الاطفال من نفس العمر غالباً ما يقعون في الاخطاء ذاتها كما ان للأعمار المختلفة اخطاؤها المميزة لها، " يجب ان نهتم بتفكير الطفل وطريقته لحل المشكلات وكذلك نوع المنطق الذي استخدمه للمعلومات الماثلة امامه، وهذا الكيف للتفكير يمكن الكشف عنه بصورة افضل عن طريق استخدام اخطاء الاطفال وليس الاجابات الصحيحة (القران الكريم، سورة العلق).

ان ما ينفرد به بياجيه هو انه - مالفاً لما كان متبعاً لدى علماء المدرسة السلوكية الامريكية - حيث يبرز ان للطفولة قوانينها الخاصة بها والتي يجب ان تطبق على دراسة الطفل بحيث لا يمكن استخدام ما يطبق على الراشد، لقد وضع اساساً لفلسفة الطفولة منطلقاً من تجاربه على اطفال بيئته ممتلكاً جرأة التعميم العلمي لوضع القوانين (زهير غزاوي، ١٩٩٣: ١٢٥).

ولد بياجيه في مدينة (neuchatel)، في سويسرا لاب مثقف وباحث في التاريخ ومدرس في الجامعة وكان في طفولته مهتماً بدراسة الحيوانات وعاداتها في الطبيعة، وقدم بحثاً حول ذلك عندما كان في الحادية عشرة، وقد اهتم عندما انتسب الى المدرسة الثانوية بالبيولوجيا وكتب مقالات عديدة حول علم الاحياء واصبح يعمل كباحث لمتحف جنيف، ثم تشعبت اهتماماته الى الفلسفة (نظرية المعرفة) حاز على جائزته في العلوم الطبيعية من جامعة المدينة، حاز على الدكتوراه في الواحدة والعشرين ثم بدأ اهتماماته بعلم النفس وقام بدراسته في زيورخ خاصة في النظرية الفرويدية والتحليل النفسي وكتب دراسات حول النظرية، سافر الى باريس وعمل في مختبر (Binet's) وهناك قام بدراساته حول الاطفال من باريس وانكلترا، عاد الى جنيف حيث تسلم منصب المدير لمؤسسه جان بياجيه روسو بحيث كان له الوقت الكافي لوضع اسس المقارنة المعرفية للنمو عند الاطفال، قام بدراسة اطفال آخرين وهم في وضع اللعب، ثم قام بوضع مجموعة من الاختبارات الهامة لتطبيق على الاطفال واسمى طريقته ب (clinical interview)، كان بياجيه متعدد الاهتمامات ووصل مؤلفاته عام ١٩٦١ الى العشرين، مما يمكنه من الحصول على الشرعية الدولية والاعتراف بأهميته في تاريخ علم التربية وعلم نفس الطفل من قبل الشرق والغرب (زهير غزاوي، ١٩٩٣: ١٢٦).

لقد كرس بياجيه وتلاميذه كثيراً من الجهد حول موضوع النمو الكيفي للبناء العقلي (structure intellectual) وموضوع نشوء المفاهيم وطبيعتها وتكوينها بمعنى نشوء التصورات العقلية الاساسية وارتقائها عند الاطفال وتطبيقاتها العملية في الحياة التربوية والاجتماعية، وقد اطلق عليها مصطلح وحدات التنظيم العقلية (the units of mental orgnization) معتبراً ان في ذهن الطفل استعداداً وراثياً للإفصاح (او التعبير عن ذاته) ينمو ويمر بمراحل ارتقائية حتى يستقر على الشكل الذي نمارسه (عثمان علي، ١٩٨٦: ٢٧-٥٠)، لقد سعى الى تأسيس نظرية في علم الوراثة تستند الى العمل الامريكي والمختبري حول سيكولوجية الذكاء عند الطفل وتطوره بدلا من التركيز على التأمل في هذا الموضوع بمعزل عن التجربة، ولهذا عرض الاطفال الى ما يسمى دراسة حالة (مقابلة - مناقشة مفصلة) ثم وضعهم في مواقف تجريبية متعددة في المعمل وعلى الطبيعة وسجل ملاحظاته وجمع البيانات، وكان يستهدف اكتساب المفاهيم في وقت محدد من عمر الطفل باستخدام طريقة تحليل الاستبطانات الكلامية (عثمان، علي، ١٩٨٦: ٢٧-٥٠)، وصولاً الى وضع النظرية التي اشتهر بها.

حيث وضع بياجيه اختبارات للذكاء استناداً الى نظريته، ووضع نظرية في اصول التربية ايضاً وكان مساهماً في فلسفة التربية التي تأخذ بعين الاعتبار اهمية التحديد والشمول والتكامل وتحقيق التوازن بين الاجراءات، التدريسية وبين امكانيات الطفل واحتياجاته النمائية (محمد عمارة، ١٩٨٥: ١٥٢)، وظل هذا العالم اميناً لتراث المدرسة الاوربية العريقة في علم النفس والتربية ولهذا واجهته المدارس الامريكية الاقدم (السلوكية- البراجماتية) بقسوة نقدية لا مبرر لها.

المحور الثالث/ التطور العقلي عند الطفل

يقصد بالتطور العقلي مجموعة المراحل المختلفة - مراحل النمو - التي ينتقل فيها الطفل من الولادة حتى يصل الى مرحلة التجريد، فالطفل في الأشهر الأولى من حياته يلعب بأصابع يديه وقدميه، وكأنه يلعب بشيء خارج عنه لا يخصه، ويظل الطفل حتى سن السادسة على اعتقاد بان المطر هو ماء يسقط من عند الله (حنفيات)، هذا وكل تفسيرات الطفل للظواهر الطبيعية كليليل والنهار والغيوم والأنهار... تتصف بالغموض والبعد عن المنطق، كل هذا يدل على ان تفكير الطفل يختلف تماماً عن تفكير الراشد، فالطفل لا يمكن اعتباره رجلاً كما كان يعتقد الاقدمون... ان للطفل عالمه الخاص ومفاهيمه الخاصة، وهو لا يدرك الاشياء كما يدركها البالغون، وهذا يعني ان تفكير الطفل يمر بمراحل متعددة ومتدرجة حتى يصل الى مستوى الوضوح والموضوعية والمنطق (مریم سليم، ٢٠٠٢: ١٧٣).

النمو المعرفي (العقلي)

يعتبر الشهر الاول من حياة الرضيع محكاً اساسياً لمدى قدرته في الوجود، حيث يولد الطفل ولديه بعض الخصائص الذاتية لما يقوم به من استجابات، وما يصل اليه من النمو الجسمي، وكذلك قابليته للتعلم واكتساب الخبرة، وعلى اساس ما يكون لدى الطفل من طاقات وقدرات واستعدادات، يتوقف شكل التفاعل بينه وبين بيئته المادية والاجتماعية، مما يحدد المسار الذي تتجه فيه عملية النمو، مع ازدياد سنوات العمر يتقدم الطفل بشكل واضح في النمو الحركي والنمو المعرفي في العالم المحيط به، فالطفل الذي يولد يكون مزوداً ببعض الافعال المنعكسة، كالمص، والقبض، والنظر،... يتعلم بالتدرج ان يصل الى الاشياء ويتناولها ويرافق النمو الحركي النمو المعرفي، اي قدرة الطفل على معرفة العالم المحيط به وفهمه، وكما تنمو لديه القدرة على التعامل مع بيئته، ان نمو القدرات الحركية يفتح امام الطفل مجالاً جديداً، عالماً جديداً للكشف والاستطلاع، اي كلما نما الطفل من الناحية الحركية، يصبح بمقدوره ان يستكشف الاحداث وان يتفاعل بشكل اكبر مع العالم المحيط به، وعن طريق هذا التفاعل المستمر بين الطفل وبين العالم المحيط به في المستوى الحسي والحركي، تنمو العمليات المعرفية التي تساعده على فهم العالم، وبالتالي السيطرة عليه، ان الدافع الى النشاط لدى الطفل هو دافع "الكفاءة" اي قدرة الكائن على التفاعل بفاعلية مع العالم المحيط به، وليس بإمكان الطفل ان يتفاعل مع البيئة الا اذا عرفها، ومن هنا كان النشاط التلقائي الموجه، والاستطلاع نشاطاً تكيفياً بدافع تحقيق الكفاءة (مریم سليم، ٢٠٠٢: ١٧٠-١٧١).

النمو العقلي

عند الولادة وازدياد التفاعل مع البيئة المحيطة والمثيرات يبدأ الدماغ بتشكيل وتزداد قدراته التحليلية وتوضح معالمه، فعند الولادة يحتوي الدماغ على ملايين الخلايا التي تكون مسؤولة عن الادراك والتفكير والتذكر، ويحدث ذلك في السنتين الاولين من حياة الطفل، وعلى الرغم من ان عدد الخلايا يبقى كما هو غير ان وزن الدماغ يزداد بسبب الترابطات التي تحدث بين الخلايا، وكلما تعرض الرضيع الى بيئة مثيرة تطور ويتضح النمو العقلي في التطور الحاصل في.

١- التفاعل مع المثبرات المختلفة في البيئة: وغالباً ما يكون الطفل في البداية مستقبلاً للمثبرات، وسرعان ما يصبح متفاعلاً معها.

٢- تكوين المفاهيم عن الأشياء: ويكون الرضيع الكثير من المفاهيم عن الأشياء قبل ان يعرف اسمها.

٣- الاستيعاب والتكيف: ويشير الاول الى ادراج الطفل لما يدركه ضمن مفهوم سبق له ان كونه دون احداث اي تعديل في ذلك المفهوم، ويشير المفهوم الثاني - التكيف - الى احداث تعديل في مفهوم سبق وان كونه كي يتلائم مع ما يدركه.

٤- تعلم الرموز: يتعلم الطفل رموزاً تدل على المفاهيم التي كونها سابقاً. ويلاحظ على الطفل الرضيع.

أ- ادراك بقاء الأشياء عندما تختفي عن الانظار: ولا يحدث ذلك قبل الشهرين، فيلاحظ ان الطفل بعد عمر الشهرين يبحث عن الشيء الذي غاب عنه.

ب- ادراك الفرق بين المجموعات: يستطيع الرضيع ادراك الفرق بين مجموعتين اذا لم يزد عن اربعة، فاذا قدم له مجموعة بها ٣ كرات واخرى ٤ كرات فانه يفرق بينهما، اما اذا كان اكثر من ذلك فلا يميز.

ت- ادراك الطفل لذاته: يدرك الطفل نفسه في حدود الشهر الحادي عشر وذلك بالنظر الى نفسه عبر المرآة غير انه لا يدرك نفسه من خلال الفيديو قبل سن ٢٣ شهراً.

ث- التمرکز حول الذات: اي عدم مقدرة الطفل على وضع نفسه موضع الآخرين من حيث الادراك فعند اغماض عينيه يظن ان الآخرين لا يرونه، وعندما يضرب طفلاً اخر فلا يظن انه يتألم طالما انه هو لا يتألم (منظمة اليونيسيف، ١٩٩٥: ٧٨-٩٠).

ويقسم بياجيه النمو العقلي للرضيع الى الفترات الآتية:

١- من الميلاد حتى نهاية الشهر الاول: يمارس الطفل خلالها عمليات مثل (المص، الرضاعة، الاخراج، النشاط البدني)، ويستطيع الطفل بنهاية هذه المرحلة تثبيت نظره نحو الضوء الذي يتابعه ويهتم به.

٢- من شهر واحد الى ٤ شهور: وهي مرحلة الاستجابات الأولية الدائرية او التكرار الاعمى الالي للاستجابات مثل ان يمسك الطفل بالشيء ثم يتركه عدة مرات، ومع نهاية هذه المرحلة تتمايز عمليات التمثيل والملائمة.

٣- من سن ٤ شهور الى ٨ شهور: وهي مرحلة الاستجابات الدائرية الثانوية، ويتعلم بها الطفل اصدار استجابة ثم انتظار حدوث نتيجة، وتنمو مفاهيم المكان، وبعض مفاهيم استمرار وبقاء الأشياء وتظهر بدايات المحاكاة، ويصبح الطفل متحركاً نحو تحقيق الهدف.

٤- من ٨ شهور حتى ١٢ شهراً: وهي مرحلة تآزر المخططات المتعلقة، ويبدأ بها التمييز بين الذات والعالم ويبدأ ظهور مفهوم الواقع، ويتعد عن التمرکز الشديد حول الذات، ويتعلم ان حدثاً ما قد يتبع آخر ويميل الى محاكاة الاستجابات الجديدة.

٥- من ١٢ شهراً إلى ١٨ شهراً: وهي مرحلة الارجاع الدائري من الدرجة الثالثة اي التكرار الذي يهدف الى التجريب، ويقوم الطفل بتنويع حركاته ويراقب هذه الحركات، كما انه يستطلع الاشياء بالتجريب، ويستخدم الوسائل لتحقيق الغايات.

٦- من ١٨ شهراً حتى ٢٤ شهراً: وهي مرحلة تمثيل المخططات وتنمو في هذه المرحلة اللغة، ويظهر الطفل ذاكرة للاشياء ويمتد التوجه المكاني ويستنتج الاسباب، ويبتكر تطبيقات جديدة لما تم تعلمه في سياق مختلف (نائل وتاج الدين، ٢٠٠٤: ١٢٢).

٥- المرأة ودلالاتها في النمو المعرفي

تشكل المرأة مجالاً جذاباً للأطفال الى حد بعيد، عندما يلاحظون انعكاساً لصورهم فيها، يبدأ هذا التحسس في سن اربعة اشهر تقريباً، الا ان الاطفال لا يدركون في هذه المرحلة ان هذا الوجه المنعكس في المرأة ليس لاحد غيرهم، وقد دلت الابحاث على الفترة التي يستطيع الطفل ان يتعرف فيها على صورته في المرأة في مراحل متعددة، يعتقد الطفل في البدء، ان انعكاس الصورة هو عبارة عن طفل ار، ويبدأ في البحث عن ذلك الطفل في محاولة العثور عليه، وفي المرحلة الثانية، يظهر الطفل علامات تدل على الوعي بالذات، اما في صورة خجل واما اعجاب بالذات، اما في المرحلة الثالثة، وهي ما بين ٢٠-٢٤ شهراً التي يتضح فيها بالفعل التعرف على الذات، وفي هذه المرحلة يستطيع الطفل ان يحدد اي جزء من وجهة (العين، الانف، الفم، الشعر) عن طريق النظر اليه في المرأة (مريم سليم، ٢٠٠٢: ١٧١).

٦- دلالات اللعب في النمو المعرفي

ان قوام اللعب الاساسي هو التعرف على الاشياء واستكشاف خصائصها ومميزاتها، غير ان اساليب اللعب تتطور بشكل جذري ما بين ١٢-٢٦ شهراً، وهناك نوعان من اللعب النوع الاول: هو الذي يقرن فيه الطفل الاشياء بعضها ببعض، وفي هذا النوع يصبح الطفل تدريجياً أكثر تنظيمياً، ان هذا النوع من اللعب يتم بفعل معرفة الطفل بخصائص الاشياء. اما النوع الثاني هو اللعب الاليهامي، كان يتظاهر الطفل بانه نائم.

١- يتميز الطور الاول بظهور قدرة الطفل على وضع الاشياء، وتنظيمها مع بعضها البعض (المكعبات، الصور).

٢- في الطور الثاني يتميز نشاط الطفل بظهور النشاط الابداعي حيث يتعامل الطفل رمزياً مع الاشياء اي ان اللعب الادعائي عند الطفل يعتمد على وجود لعبة (تلفزيون مثلاً) يتظاهر انه يتحدث من خلالها ان الطفل يتظاهر بانه يقوم بنشاط يستخدم فيه العاباً مختلفة مثل السيارات او الادوات المنزلية او الدمى التي تشبه الاطفال، كما لو كانت موجودة في الحقيقة (مريم سليم، ٢٠٠٢: ١٧١-١٧٢).

درس بياجيه تطور العمليات العقلية من الولادة حتى مرحلة المراهقة في كتابه (ولادة الذكاء، Lanaisance de l'intelligence)، وستناول هنا مرحلة الذكاء الحس حركي (Sensori-motrice).

الذكاء الحس حركي

يميز الذكاء الحس حركي - نمو الطفل من الولادة حتى عمر السنتين تقريباً، وهذا الذكاء يصفه " بياجيه" على اساس انه بدون تفكير او تمثيل، بدون كلام او مفاهيم، وتنقصه الوظيفة الرمزية التي تتيح له تمثيل ذلك بصور ذهنية او التعبير بصور كلامية، من هنا نتناول الذكاء هذا بوجود الشيء والمواقف والاشخاص، والوسيلة الى ذلك هو الادراك الحسي فقط، الا ان ذكاء هذه المرحلة سريع النمو خلافاً لكل مرحلة اخرى، وهو يهيئ البنى المعرفية الاساسية كالذكاء اللاحق، من هنا تبدو اهميته القصوى في مجال النمو التكويني للفرد، ان الذكاء الحس حركي هو عملي في الاساس، فهو يتجه نحو النجاح اكثر من اتجاهه نحو الحقيقة، فالوصول الى حل المسائل (بحسب تجارب بياجيه، الوصول الى الاشياء البعيدة او المخبأة) يتحقق بفضل بناء نظام من الصور الذهنية المعقدة وتنظيم الواقع بحسب بنيات زمنية - مكانية مرتبطة بالاسباب(معصومة احمد، علم نفس النمو، ٢٠٠٠: ١٢).

المبحث الثاني

المحور الأول/ مراحل النمو المعرفي في القرآن الكريم الحنبلية

تناول الفلاسفة المسلمون مراحل المعرفة العقلية لدى الانسان، حيث تؤمن الفلسفة الاسلامية بوجود المعرفة العقلية والماء وراء المعرفة الحسية والتجريبية وكانت هذه المراحل كالآتي:

١. المعرفة الحسية:

حيث تنقسم المعرفة الى حسية وعقلية، حيث تعبر المعرفة الحسية عن المعرفة السطحية المشتركة بين الحيوان والانسان، بل ربما تكون في الحيوان اقوى منها في الانسان، فالعقاب يرى الاشياء البعيدة والتي لا تناهها ابصار غيره، فالكلاب تشم الروائح الخفية، والخفافيش تستشعر في الظلام الموانع فتتجنبها، وعلى حسب هذه الرؤيا فان المعرفة الحسية التي تقوم على الحواس الظاهرية والتي تعم الانسان وغيره.

٢. المعرفة العقلية:

وتعبر المعرفة العقلية عن المفاهيم الكلية التصورية او القضايا الكلية التصديقية والتي يتناولها العقل البشري في ظل العمليات الخاصة، فالانتقال الى المفهوم الكلي للإنسان وذلك من خلال العديد من المشاهدات لعدة افراد متماثلة، وهي المعرفة العقلية التصورية، كما ان انتزاع القاعدة الكلية (مثل انصهار الحديد عند ارتفاع درجة الحرارة) وهي تعد معرفة عقلية تصديقية، ناتجة من عمليات تجريبية متكررة.

النمو العقلي للإنسان والاشارات القرآنية

يقول تعالى في سورة (الزمر الآية ٢١)، (لم تر ان الله انزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً الوانه ثم يهيح فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً ان في ذلك لذكرى لأولي الالباب)، في ذكر نمو وتطور النبات، وفي الاية المباركة يتصل اسم الله تعالى (تبارك) والذي هو اسم من الاسماء الحسنى في مقام الخليفة في انما بحالة نمو وتكامل مستمر، لان خالقها يعطيها بركة تلو الاخرى، مما يدل على ان مسيرة الخلق التصاعدي (محمد تقي، ١٤١٩: ١٣٧).

اولاً: ان العصر الذي تنزل فيه القرآن الكريم يخبرنا عن مراحل التخلق البشري بمصطلحات دقيقة والتي تنطبق مع القواعد للمعرفة الحديثة، ويوضح لنا ان خلق الجنين وتطوره يتم على عدة مراحل واطوار بقوله جل وعلا (مالكم لا ترجون الله وقاراً* وقد خلقكم اطواراً)، (سورة نوح الآية ١٤)، حيث يذكر ابن عباس وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد معنى من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة.... الى آخر اطوار الانسان (محمد هادي، ب، ت: ٨٠).

ثانياً: وتدلل مجموعة أخرى من الآيات التي تشير إلى نمو الإنسان إلى وجود قوة النمو فيه ومنها قوله تعالى (ولم ير الإنسان انا خلقناه من نطفه فاذا هو خصيم مبين) وقوله (خلقناكم اطواراً)، حيث ان الله تعالى خلقنا تارات متنوعة، كما تعبر عنه الاطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل العظمي إلى الخلق الكامل، او تعبير عن مراحل نمو الانسان مبتدأ بالطفولة ثم الشباب والشيخوخة (وهبة بن مصطفى، ١٤٢٢: ٢٩٠).

ثالثاً: وقوله تعالى (ثم يخرجكم طفلاً) اي اطفالاً، وقد جاء مفرداً للجنس، وان الجنس يقصد به النوع الاجتماعي (ذكور، اناث)، ويخرج كل واحد منكم، وهو في تزايد ونمو وقوة فيكمل قواه ويزيد مقداره شيئاً فشيئاً بحسب ما تقتضيه الطبيعة فيتلقي الاشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة غير تامة ويستمر في التزايد قليلاً قليلاً، وشيئاً فشيئاً حتى يألف الاشياء ويتمرن عليها، ويصل إلى غايته ويخرج من حد الحيرة فيها إلى التصرف في الحياة بعقله (المولى صالح، ١٣٨٢: ١٣٠).

رابعاً: وقوله (لتركبن طبقاً عن طبق)، ففي هذه الاية اشارة إلى ان المراحل التي يقطعها الفرد في مسيرة حياته مرتبة ومتطابقة (محمد حسين، ١٤١٧: ٢٤٧)، ويذكر بانه معناه منزلة عن منزلة وطبقة عن طبقة وحال عن حال اي من نطفة إلى طفل إلى شاب (علي اكبر، ١٤١٩: ١٥).

المحور الثاني/ مراحل النمو العقلي الثالث

تقسم مراحل النمو العقلي (المعرفي) لدى الانسان إلى ثلاث مراحل نسبة إلى التقسيم العام للنمو لدى الانسان والذي اشارت إليه آيات المراحل الثلاث كما في قوله تعالى في (سورة الروم الاية ٥٤)، الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعف وشيبهه يخلق ما يشاء وهو العليم القدير)، وبهذا تتضح ثلاث مراحل للنمو هي كالآتي:

المرحلة الاولى: مرحلة الضعف العقلي-المعرفي- وهي المرحلة السريعة والسهلة في التعلم وقوة الحفظ والتذكر وهي الطفولة.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة القوة في المجال العقلي - المعرفي- وهي مرحلة المراهقة تأتي بعد الطفولة وتسبق الرشد وتستمر إلى كمال الرشد وصولاً إلى قوة التفكير والذاكرة إلى قمتها.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الضعف العقلي- والمعرفي الثانية (الضعف- الشيب) وهي مرحلة النزول وصعوبة الحفظ والتذكر من الرشد إلى الشيخوخة.

المراحل الثلاث للنمو العقلي والاشارات القرآنية

ما وجدناه في هذا البحث وجود العديد من الآيات التي تشير إلى غريزة بعض الحواس في الانسان ومنها (وهو الذي انشا لكم السمع والابصار والافئدة قليلاً ما تشكرون)(سورة المؤمنون، الآية ٧٨).

أولاً: حيث يظهر من الآية ان الله تبارك وتعالى هو الذي بذر تلك الحاستين في خلقه الانسان، وبعد هاتين الحاستين اللتين هما مفتاح الادراك في عالم المادة، يأتي دور العقل الذي ينتزع تلك الافكار من الحواس الخمسة ويخترق الطبيعة الى ما وراؤها ومهمته الترتيب والاستنتاج والنقد والتحليل والتعميم وهو محصلة لحاستين هما السمع والبصر (مكارم الشيرازي، ب، ت، ٤٨٨).

ثانياً: وحينما نتصور ثاني المراحل للنمو العقلي - المعرفي في القرآن الكريم، في قوله تبارك وتعالى في سورة (الحديد الآية ٢٠)، (اعلموا انما الحياة الدنيا لعبٌ وهو زينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد)، فترسم الآية وضع الحياة الدنيا وتلك المراحل المختلفة والظروف والمحفزات التي تحيط وتحكم في كل مرحلة من هذه المراحل بقوله تعالى (اعلموا انما الحياة الدنيا لعباً وهو.....)، توضح صورة الغفلة واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر حيث انها تشكل خمس مراحل يمر بها الانسان خلال مسيرة حياته.

ففي البدء مرحلة الطفولة والحياة فيها مرتبطة بحالة الغفلة واللعب والجهل، ثم تاتي مرحلة المراهقة حيث تأخذ اللهو بمكان اللعب ويكون فيها الانسان لاهياً وراء وسائل العيش والامور التي تلهيه وتبعده عن الامور الجدية.

اما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الشباب والنشاط والحيوية وحب الزينة والعشق، واذا تجاوز المرء هذه المرحلة فانه يصل الى المرحلة الرابعة حيث تتولد لديه دوافع التفاخر والعلو، وفي نهاية الامر يصل الى المرحلة الخامسة حيث يفكر فيها بزيادة الاولاد والمال والى غيرها.

فالمرحلة الاولى تشخص حسب العمر، اما المراحل اللاحقة فتختلف من شخص لآخر كلياً، والبعض من تلك المراحل يستمر مع الفرد الى نهاية عمره، مثل مرحلة جمع المال، على الرغم من ان البعض يتصور ان كل مرحلة من تلك المراحل تأخذ عدة اعوام من عمره، فيبلغ تمام العقل في عمر الاربعين، كما في سورة (الاحقاف، الآية ١٥) (حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة)، حيث تثبت شخصية الانسان حينما يصل عمر الاربعين.

فسمات تلك المراحل تستمر في سلوك بعض الافراد مثل اللهو واللعب والشجار وهو الطابع العام، فتفكيرهم محصور في تهيمه البيت الفاخر والملابس الانيقة وغير ذلك من متاع الحياة، حيث يشعرون بانهم اطفال في سن الكهولة وشيوخ في روحية الاطفال.

وفي نفس الصدد يذكر الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله (كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً)، اما المرحلة الثالثة وهي مرحلة الاشتداد العقلي (حتى يبلغ اشده) (سورة الانعام، الآية ١٥٢)، اي حتى يقوى ويكمل عقله (محمد السبزواري، الجديد في تفسير القرآن المجيد: ١٠)، وقوله تعالى (ولما بلغ اشده)، ان (اشد) معناه الاستحكام الجسدي والروحاني، ومعنى الوصول الى البلوغ والرشد، وهذا العنوان عبر عنه القرآن الكريم في مراحل مختلفة من عمر الفرد، وقد اطلق مرة على سن الرشد (البلوغ)، تعالى (ولا تقرّبوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده) (سورة الاسراء، الايه ٣٤)، واطلق مرة اخرى يراد فيها مرحلة ما قبل الشيخوخة والكبر، كقوله تعالى (ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا اشدكم ثم لتكونوا شيوخاً) وقد تتفاوت في التعبيرات عن مراحل عمر الانسان لاستحكام الجسم والروح، ومما لاشك فيه ان الوصول الى سن البلوغ يعتبر واحد في هذه المراحل.

كما ان وصول الانسان الى عمر الاربعين عاماً والذي يكون فيه الانسان في تمام النضج العقلي والفكري هي مرحلة ثانية، بالإضافة ان المرحلة الثالثة تكون قبل ان يصل الانسان نحو قوس النزول، ويبلغ الوهن والضعف، كما ان المقصود في هذه الاية - هو مرحلة البلوغ الروحي والجسمي والذي يظهر في سورة يوسف (الشيرازي، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ص ١٧٤)، وهناك عدد من المفسرين من يرى ان تحديد سن الاربعين يعد مدخلاً، كي يتم تحديدها كمرحلة نمو عقلي ومعرفي وفي الختام قوله تبارك وتعالى (ولما بلغ اشده اتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين)، الوصول لمرحلة القوة والاشد، ان يعمر الانسان ما تشتد به قواه البدنية وتقوى به اركانه بانتهاء اثار الصباوة، ويكون ذلك من الثمانية عشر عاماً من عمره الى سن الكهولة التي فيها يكتمل العقل والرشد، والمراد به انتهاء الى عمر الشباب دون التوسط فيه او الانتهاء الى اخر عمر الاربعين، والدليل على ذلك قوله تبارك وتعالى في نبي الله موسى عليه السلام (ولما بلغ اشده واستوى اتيناه حكماً وعلماً) (سورة القصص، الاية ١٤)، كما دل على التوسط فيه بقوله "استوى" وقوله تبارك وتعالى (حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب اوزعني ان اشكر نعمتك) (سورة الاحقاف، الاية ١٥)، فلو كان بلوغ الاشد هو الوصول الى عمر الاربعين لم تكن الحاجة الى تكرار قوله (بلغ)، وان بلوغ الاشد هو بلوغ عمر الثلاثين او الثلاث والثلاثين، كذلك قوله تبارك وتعالى ان بلوغ الاربعين هو سن الاربعين، فمن المضحك ان صبر امراة العزيز عن يوسف لبلوغ عنفوان شبابه وربيعان العمر وحتى اذا بلغ الاربعين من عمره واشرف على الشيخوخة تعلقت زليخة به وراودته عن نفسه (محمد الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ص ١١٨).

رابعاً: مرحلة الحلم: قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم (واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستمتذنا كما استأذن الذين من قبلهم)، (سورة النور، الاية ٥٩)، يذكر (الراغب الاصفهاني) من باب اللغة (الحلم) هو ضبط النفس والطبع من الهيجان والغضب، والجمع احلام - ام تامرهم احلامهم - وقيل معناه عقولهم، وليس الحلم في الحقيقة هو العقل، لكن تم تفسيره بذلك لكونه من اسباب العقل^(١).

واما كلمة (الحلم) فهي على وزن (كتب) بمعنى العقل والكتابة عند البلوغ والذي يعد مساوياً لفطرة العقل والمرحلة الجديدة في حياة الانسان^(٢).

ويدعى العقل حليماً لان استقامة التفكير، وهو ايضا الحلم لزمان البلوغ والرشد وكما قال تعالى في محكم كتابه الكريم (واذا بلغ الاطفال منكم الحلم) او زمن البلوغ، وهو بلوغ العقل ومنه الحلم بكسره للحاء وهو بمعنى (الاناءة) وهو عكس الطيش اي ضبط النفس والطبع من الهيجان والغضب، وهو عكس المعالجة في اصدار الحكم بالعقوبة وهو ينتج من استقامة التفكير^(٣).

(١) (الراغب الاصفهاني، مفردات غريب القرآن، مادة الحلم).

(٢) الشيخ مكارم الشيرازي، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١١، ص ١٦.

(٣) السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١١، ص ١٨٨.

المحور الثالث/عدد المراحل المعرفية في القرآن الكريم

وقد وردت سور كثيرة في القرآن الكريم تتناول مراحل النمو المعرفي والعقلي في القرآن الكريم، وهي كما يلي:

١ - مرحلة الافول المعرفي وقد نزلت سور في القرآن الكريم منها قوله تعالى (ومنكم من يرد الى اذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً)، حيث تدل على بعض ان الناس لا كل البشرية يمرون بهذه المرحلة وفقد المعلومات والنسيان في الفترة المتأخرة من العمر وقد تكون هذه توضيح لمرض الزهايمر.

٢ - قوة النمو المعرفي هبة من الله تبارك وتعالى (من حيث سرعة النمو) لقوله تعالى (امن يملك السمع والابصار)، (سورة يونس، الاية ٣١).

فان الله تبارك الذي وهب النفس القدرة على اداء وظائفها او يحرمها، وبمرضها ويشفيها، ويصرفها لعمل الخير او يلهيها ويسمعها ويربها ما تكره وما تحب. وكذلك ما يدركونه من ملكه البصر والسمع، ولا يزال البشر يكشفون اسرار من طبيعة تكوين الانسان من السمع والبصر - ومن دقائق صنع الله تبارك وتعالى لجهاز السمع والبصر (ومن تركيب الاذن والعين واعصابها الحسية وادراك المرئيات وادراك الاذن لموجات الصوت والذبذبات، وما زال البشر يبهرون فيما صنع الخالق جل وعلا^(١)).

وتنتهي عملية نقل موجات (ذبذبات الصوت) السمع فيزيائياً الى عملية ميتافيزيقية غير مادية او معلومة وكذلك البصر.

٣ - يولد جميع اطفال بني ادم (البشر) بدرجة الصفر المعرفية:

وقوله تعالى (والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون)، اي انكم حين تولدون وتخرجون من ارحام امهاتكم فأنتم تولدون وليس لديكم اي معرفة خزنتموها عن طريق الحواس والعقل والخيال، ثم بعد عملية النمو تبدء عملية خزن المعرفة والمعلومات، وتدلل هذه الآية الى ما ذهب اليه العلماء بان ذهن وفكر الطفل يكون خالي من المعلومات حين الولادة ثم تسجل وتخزن هذه المعرفة بصورة تدريجية وتنقش على النفس البشرية شيئاً فشيئاً^(٢).

وهذا ما يثبت بان المعرفة كانت صفراً لدى الطفل حين الولادة ثم تتطور عند الفرد، وهذا لا يعني هناك قوى فطرية موجودة في تركيبة الفرد تنمو وتتطور عبر الزمن ليكتمل النضج ؟

المرحلة المعرفية المحالة الى الانسان: ان مراحل المعرفة المذكورة اعلاه يمكن تعريفها بانها تلك المعرفة التي تخص ذات الله تبارك وتعالى المقدسة، والتي لا يمكن لأي احد ان يعرفها او يطلع اليها الا هو (ذاته المقدسة)، اما المراحل التي تأتي بعد هذه المرحلة

(١) السيد بن قطب الشاذلي، في ظلال القرآن، ج٣، ص١٧٨.

(٢) السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، ص٣١٣.

والتي يمكن للعقل البشري ان يتعرف عليها، فهي مرحلة معرفة الصفات الله تعالى بصورة عامة ومعرفة افعاله بصورة مفصلة وهذه المرحلة كما ذكرناها ممكنة للإنسان، والمراد من معرفة الله الوصول الى هذه المرحلة والآية هي قوله تبارك وتعالى (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون)(سورة الزمر، الآية ٦٧).

فأن القرآن الكريم يشير الى ان النمو المعرفي له نهاية محددة، وهذا الحد هو عدم تجاوز النمو المعرفي لمرحلة معرفة الحقيقة للذات الالهية المقدسة، وهذا الامتناع موجود في قصة سيدنا موسى عليه السلام، اذ طلب موسى لنفسه الرؤية القممة التي هي فوق الكيان المعرفي لديه، وعلى هامشها الرؤية البصرية المقترحة من قومه فجاء الجواب (لن تراني) والاصل رؤيته الخاصة وهي مناسبة للآية (ولكن انظر الى الجبل..)، دون المستحيل، فأثما مبرهنة للاستحالة والبرهان دون الحاجة الى البرهنة الحسية^(١).

فما هي العلاقة بين امكانية رؤية الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام وبين استقرار الجبل في مكانه في ذلك التجلي، حين يكون الجبل في ذلك التجلي مثلاً لموسى عليه السلام بانه لا يستطيع التجلي المعرفي للقمة ما دام هو موسى الذي لم يبلغ مبلغ اول العارفين الا ان يموت في ذلك التجلي، ثم لا يفيد الموت ايضاً حين يتجلى له ربه في الحالة التجريدية البرزخية، وإنما ذلك مخصوص بأول العارفين وخاتم الانبياء المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ففي قوله تبارك وتعالى (دنا فتدلى فكان قاب قوسين او ادنى....ولقد راه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى)، (٥٣: ١٢)، فلو لم يكن مكلفاً باستمرار هذه الرسالة التي تتطلب مواجهة الخلق لم يخرج عن هذه الحالة التجريدية المعرفية الخارقة لكافة الحجب الظلمانية والنورانية بينه وبين الله تعالى، حتى حجاب نفسه، فلم يبق لتلك المعرفة حجاب سوى حجاب ذات الله التي لا ترتفع لاحد^(٢).

٤- المراحل الاشتدادية لليقين: ورد في سورة التكاثر (الايه ٥-٧)، قوله تعالى كلا لو تعلمون علم اليقين "٥" لترون الجحيم "٦" ثم لترونها عين اليقين)، فاليقين يقابل الشك، كما ان العلم يقابل الجهل واليقين بمعنى الوضوح للشيء وثبوت، ويستفاد من

الروايات ان اليقين هو اعلى مراحل الايمان ولليقين مراتب ثلاث وهي كالآتي

أ- الاول علم اليقين.

ب- والثانية عين اليقين فهي فوق مقام علم اليقين.

ت- والثالثة حق اليقين، فهي ارقى من السابقتين، فالسالك بعد اكمال المرتبة الثانية، وارتقائه في يقينه بنتيجة رياضته النفسية،

فيصل الى مقام يصير فيه بصره حديداً وسمعه شديداً فهو يرى ما لا عين رأت ولا اذن سمعت^(٣).

(١) الفرقان في تفسير القرآن بالقران، ج ١١، ص ٢٩٥.

(٢) الفرقان في تفسير القرآن بالقران، ج ١١، ص ٢٨٤.

(٣) الشيخ مكارم الشيرازي، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢، ص ٤٢٤.

الاستنتاجات والتوصيات

اولاً: موانع النمو المعرفي في القرآن الكريم: كما ورد في الآيات القرآنية التي تشير الى وجود الموانع التي تؤخر وتعطل النمو الخلقى (المعرفي) لدى الانسان وهي كالآتي:

أ- التقليد الاعمى: كما في قوله تعالى (وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا اباؤنا على امة وانا على اثارهم مقتدون" ٢٣ قال اولو جئتمكم بأهدى مما وجدتم عليه اباؤكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرين)، (سورة الزخرف، ٢٣-٢٤).

ب- التعصب والتقليد الاعمى: يمنع الفكر والعقل (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب واكثرهم لا يعقلون" ١٠٣ واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه اباؤنا اولو كان اباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون)، (سورة المائدة، ١٠٣-١٠٤).

ت- اتباع هوى النفس (السيئة) يمنع النشاط العقلي: قال تعالى في محكم كتابه الكريم (ارءيت من اتخذ الهه، هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً" ٤٣" ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلاً)، (سورة الفرقان، الايه ٤٣-٤٤).

ث- القوى العقلية (المعرفية) عند الانسان: وجد علماء النفس ان بعض الاعضاء ان لدى الانسان او القوى التي تؤدي الى تزويده بالمعرفة والمعلومات المتنوعة وهي تعمل على التطور المعرفي (العقلي) لدى بني البشر والتي زودها الله تبارك وتعالى بما وهي مجموعة ادوات تسمو بالعقل البشري الى الادراك والوعي وهذه الادوات هي كالآتي:

١- القوة الحسية لنظر العين: قال تبارك وتعالى (وهو الذي انشأ لكم السمع والابصار).

٢- القوة الحسية السمعية في الاذن: قال تعالى (وهو الذي انشأ لكم السمع والابصار).

٣- القوة الحسية اللمسية في اصابع اليد: قال تبارك وتعالى (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين)، (سورة الانعام، الايه ٧).

٤- القوة الحسية الذوقية في اللسان: قال تبارك وتعالى (بيضاء لذة للشاربين)، (سورة الصافات، ٤٦)، وقوله تعالى (لبناً خالصاً سائغاً للشاربين)، (سورة النحل، الايه ٦٦).

٥- القوة في الذاكرة: قال تبارك وتعالى (ونسوا حظاً مما ذكروا به)، (سورة المائدة، الايه ١٣)، (لكي لا يعلم بعد علم شيئاً).

٦- القوة المعنوية في العقل المجردة: حيث يستخدم الانسان العقل لتحليل المعلومات والاستنتاج المنطقي ويتخطى الحسيات للوصول الى القواعد العامة، حيث وردت آيات في القرآن الكريم تدم الذين لا يستخدمون العقل ولا يستثمرونه كقوله جل وعلا (يا اهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل الا من بعده افلا تعقلون)، (سورة ال عمران، الايه ٦٥).

٧- القوة الوجدانية للمعارف في القلب: قال تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشوة ولهم عذاب عظيم)، (سورة البقرة، الايه ٧).

المصادر

١. عثمان، علي (١٩٨٦)، فلسفة الاسلام في الانسان، دار الآداب، بيروت لبنان.
٢. عمارة، محمد (١٩٨٥)، جواهر البخاري، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر.
٣. نائل، محمد عبد الله اخرس، وتاج السر عبد الله الشيخ، (٢٠٠٥)، علم نفس النمو، ط ١، مكتبة الرشيد، الرياض، السعودية.
٤. عادل عز الدين الاشول (١٩٨٩)، علم نفس النمو، ط ٢، مكتبة انجلو المصرية، القاهرة، مصر العربية.
٥. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، بلا تاريخ، دار المعارف، القاهرة، مصر.
٦. الشيخ مكارم الشيرازي، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١١.
٧. - السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١١، ص ١٨٨.
٨. - السيد بن قطب الشاذلي، في ظلال القرآن، ج ٣، ص ١٧٨.
٩. - السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٣١٣.
١٠. - الفرقان في تفسير القرآن بالقران، ج ١١، ص ٢٩٥.
١١. - الفرقان في تفسير القرآن بالقران، ج ١١، ص ٢٨٤.
١٢. - الشيخ مكارم الشيرازي، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢، ص ٤٢٤.